التوسل بأهل البيت جائز

<"xml encoding="UTF-8?>

السؤال:

لماذا نتوسّل بأهل البيت (عليهم السلام) ؟ مع الاستشهاد بالقرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة للشيعة والسنّة ؟

الجواب:

قد خلق الله سبحانه العالم التكويني على أساس الأسباب والمسبّبات ، فلكلّ ظاهرة في الكون سبب عادي يؤثّر فيها بإذنه سبحانه ، فالماء مثلاً يؤثّر على الزرع بصريح هذه الآية : (وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ) (١) .

والباء في الآية بمعنى السببية ، والضمير يرجع إلى الماء ، وهذا ليس بمعنى تفويض النظام لهذه الظواهر المادّية ، والقول بتأصّلها في التأثير ، واستقلالها في العمل ، بل الكلّ متدلٍّ بوجوده سبحانه ، قائم به ، تابع لمشيئته وإرادته وأمره .

هذا هو الذي نفهمه من الكون ، ويفهمه كلّ من أمعن النظر فيه ، فكما أنّ الحياة الجسمانية قائمة على أساس الأسباب والوسائل ، فهكذا نزول فيضه المعنوي سبحانه إلى العباد تابع لنظام خاصّ كشف عنه الوحي ، فهدايته سبحانه تصل إلى الإنسان عن طريق ملائكته ، وأنبيائه ورسله وكتبه ، فالله سبحانه هو الهادي (وَاللّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ) (٢) .

والقرآن أيضاً هو الهادي : (إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (٣) .

والنبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله) أيضاً هو الهادي ، ولكن في ظلّ إرادة الله سبحانه : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (۴) .

فهداية الله تعالى تصل إلى الإنسان عن طريق الأسباب والوسائل التي جعلها الله سبحانه طريقاً لها ، وإلى هذا الأصل القويم يشير الإمام الصادق (عليه السلام) في كلامه ، فيقول : (أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب ، فجعل لكلّ شيء سبباً ، وجعل لكلّ سبب شرحاً ...) (۵) .

فعلى ضوء هذا الأساس ، فالعالم المعنوي يكون على غرار العالم المادّي ، فللأسباب سيادة وتأثير بإذنه سبحانه ، وقد شاء الله أن يكون لها دور في كلتي النشأتين ، فلا غرور لمن يطلب رضا الله أن يتمسّك بالوسيلة ، قال الله سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (۶) .

فالله سبحانه حثّنا للتقرّب إليه على التمسّك بالوسائل وابتغائها ، والآية دعوة عامّة لا تختصّ بسبب دون سبب ، بل تأمر بالتمسّك بكلّ وسيلة توجب التقرّب إليه سبحانه ، وعندئذ يجب علينا التتبّع في الكتاب والسنّة ، حتّى نقف على الوسائل المقرّبة إليه سبحانه ، وهذا ممّا لا يعلم إلاّ من جانب الوحي ، والتنصيص عليه في الشريعة ، ولولا ورود النصّ لكان تسمية شيء بأنّه سبب للتقرّب بدعة في الدين ، لأنّه من قبيل إدخال ما ليس من الدين في الدين .

ونحن إذا رجعنا إلى الشريعة ، نقف على نوعين من الأسباب المقرّبة إلى الله سبحانه :

النوع الأوّل : الفرائض والنوافل التي ندب إليها الكتاب والسنّة ، ومنها : التقوى ، والجهاد الواردين في الآية ، وإليه يشير الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويقول : « إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى ، الإيمان به وبرسوله ، والجهاد في سبيله ، فإنّه ذروة الإسلام ، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة ، وإقامة الصلاة فإنّها الملّة ، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة ، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العقاب ، وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ، ويرحضان الذنب ، وصلة الرحم فإنّها مثراة في المال ، ومنسأة في الأجل ، وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة ، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء ، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان ... » (۷) .

غير أنّ مصاديق هذا النمط من الوسيلة لا تنحصر في ما جاء في الآية ، أو في تلك الخطبة ، بل هي من أبرزها .

النوع الثاني : وسائل ورد ذكرها في الكتاب والسنّة الكريمة ، وحثّ عليها الرسول (صلى الله عليه وآله) ، وتوسّل بها الصحابة والتابعون ، وكلّها توجب التقرّب إلى الله سبحانه .

ومن تلك الوسائل المقرّبة هم أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

فقد ورد في بعض الروايات : أنّ المراد من الوسيلة في قوله تعالى : (وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ) هم أهل البيت (عليهم السلام) ، منها :

۱ـ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : « الأئمّة من ولد الحسين ، من أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن عصاهم فقد عصى الله ، هم العروة الوثقى ، وهم الوسيلة إلى الله تعالى » (۸) .

٢ ـ قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في قوله تعالى (وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ) : « أنا وسيلته » (٩) .

٣ ـ ورد في زيارة الجامعة الكبيرة المروية عن الإمام الهادي (عليه السلام) : « مستشفع إلى الله تعالى بكم ، ومتقرّب بكم إليه ، ومقدّمكم أمام طلبتي وحوائجي ، وإرادتي في كلّ أحوالي وأُموري ... » (١٠) .

٤ ـ ورد في دعاء التوسّل عن الأئمّة (عليهم السلام) : « يا سادتي وموالي إنّي توجّهت بكم أئمّتي وعُدّتي ، ليوم فقري وحاجتي إلى الله ، وتوسّلت بكم إلى الله ، واستشفعت بكم إلى الله ... » (١١) .

٥ ـ ورد في دعاء الندبة : « وجعلتهم الذريعة إليك ، والوسيلة إلى رضوانك ... » (١٢) .

هذا وكانت سيرة أصحاب أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) يتوسّلون بدعائهم ، لأنّ التوسّل بدعاء الإمام لأجل أنّه دعاء روح طاهرة ، ونفس كريمة ، وشخصية مثالية ، ففي الحقيقة ليس الدعاء بما هو دعاء وسيلة ، وإنّما الوسيلة هي الدعاء النابع عن تلك الشخصية الإلهية التي كرّمها الله وعظّمها ، ورفع مقامها وذكرها ، وقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (١٣) .

فهذا هو علي بن محمّد الحجّال ، كتب إلى الإمام الهادي (عليه السلام) ، وجاء في كتابه : وأصابتني علّة في رجلي ، لا أقدر على النهوض والقيام بما يجب ، فإن رأيت أن تدعو الله أن يكشف علّتي ، ويعينني على القيام بما يجب عليّ ، وأداء الأمانة في ذلك ... (١٤) .

وذكر ابن حجر في كتابه « الصواعق المحرقة » توسّل الإمام الشافعي بآل البيت E :

آل النبـيّ ذريعتـي ** وهـم إليـه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً ** بيدي اليمين صحيفتي (١٥) .

وقال الشاعر الصاحب بن عبّاد في ذلك :

وإذا الرجال توسّلوا بوسيلة ** فوسيلتي حبّي لآل محمّد

الله طهّرهـم بفضل نبيّهم ** وأبان شيعتهم بطيب المولد (١٦) .

ثمّ من المتّفق عليه جواز التوسّل بدعاء الرجل الصالح ، وبحقّه وحرمته ومنزلته ، فكيف بمن هم سادة وقدوة الصلحاء ؟ ألا وهم أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) .

وتأييداً لما قلنا ، صرّح الزرقاني في شرح المواهب بجواز بل استحباب التوسّل بالنبيّ (صلى الله عليه وآله) لزائره (١٧) وغيرهم .

---

(١) البقرة : ٣٢ .

(٢) الأحزاب : ٤ .

(٣) الإسراء : ٦ .

(٤) الشورى : ٥٢ .

(٥) الكافي ١ / ١٨٣ .

(٦) المائدة : ٣٥ .

(٧) شرح نهج البلاغة ٧ / ٢٢١ .

(٨) عيون أخبار الرضا ١ / ٦٣ ، ينابيع المودّة ٢ / ٣١٨ و ٣ / ٢٩٢ .

(٩) مناقب آل أبي طالب ٢ / ٢٧٣ .

(١٠) عيون أخبار الرضا ١ / ٣٠٨ .

(١١) بحار الأنوار ٩٩ / ٢٤٩ .

(١٢) إقبال الأعمال ١ / ٥٠٥ .

(١٣) الأحزاب : ٣٣ .

(١٤) كشف الغمّة ٣ / ١٨٢ .

(١٥) الصواعق المحرقة ٢ / ٥٢٤ .

(١٦) مناقب آل أبي طالب ٣ / ٣٩٩ .

(١٧) شرح المواهب اللدنية ٨ / ٣١٧ .